في سياستنا الخارجية
بعد الوثبة

يبدو أن حقيقة الوعي الشعبي ما تزال موضع شك في نظر بعض المفكرين من ساسة العرب ، ولعلها أن تكون موضع شك في نظر بعض المفكرين من مراقبي السياسة في هذا الشرق كله ، ذلك لان هؤلاء المفكرين ينظرون الى هذه الحركات الواثبة هنا وهناك على انها حركات انفرادية لا يربط الواحدة منها بالاخرى نظام موحد ، ولا ينتظم قيادتها جامع يديرها ويدبرها ويرعى ظروفها المناسبة للقيام حين يعوز الامر القيام او القعود حين تقتضي المصلحة القعود !

وعلى ذلك يرى هؤلاء ان هذه الحركات قوى موزعة ، فمهما عظمت لا تصلح أن تكون مصدراً للابداع والتفوق فيما ترمي اليه

من الوثوب الى العدل والأخذ بالحركات الكاملة ، إذ انها لا تعدو – كما يقولون – أن تكون أصفاراً على الشمال ، ولن تنتج الأصفار بالبداهة مهما عظم عددها غير الصفر في النهاية .

ولكن الواقع في هذه النظرية انها مغموسة بذائب من التشاؤم المظلم لأنها لا تحاول او لا تريد أن تحاول الالتفات الى هذه البشائر التي سجلتها الشعوب الصغيرة في كفاحها الأخير وسجلت ، لأنفسها خلال هذا الكفاح انتصارات عجيبة لو تحدّث بها الراصدون لعدها المتشائمون ضرباً من الجنون .

والأمر الذي لا شك فيه ولا جدال أن تململ الشعوب الصغيرة الطويل وضيقها الشديد بالطبقات الحاكمة المستأثرة قد أرهف نوعاً من الشعور الحساس الثائر ، وان هذا الشعور الحساس الثائر الذي أرهفه التململ الطويل والضيق الشديد قد بلغ من القوة حيث يستطيع التملص والاباء في كل مكان من هذا الشرق على كل حاكم يكلفه الخضوع لمستعمر ، أو يروضه على الهوان والاستخذاء لفاتح .

وهذا ما نسميه (بالوعي) ، ونرجو أن يكون (جامعاً) ينبثق منه النظام الموحد الذي يدير حركاتنا المتلاقية بالاغراض والاهداف في كل قطر يشاركنا بما نحس به ونصبو اليه ، وبهذا تتساوى وتتماشى الوثبة الشرقية ، فتتحصن بذلك من عدوان المستعمر ، وتتعب قواه حتى لا تغني عنه شيئاً .

ولماذا نذهب الى بعيد في ضرب الامثلة لهذه الحقيقة من أمرنا الراهن ، فهذه حركتنا الشعبية في العراق لقحت في اسبوعها

الاول نتاجاً طيباً أثمر إثاراً عجيباً ساحراً ، ولا أعني سقوط الوزارة السابقة ، ونهوض الوزارة الحاضرة فذلك أيسر ما جنته هذه الحركة المباركة ، ولكني اعني ما استلزمته حركتنا من الصلابة في الاقطار العربية جمعاء فاذا معاهدة شرق الاردن ترجع على أعقابها ، واذا عزيمة مصر على رفض المعاهدة تضرى وتشتد ، واذا اتفاقية النقد في سورية تفصم بلطمة بارك الله بكف لاطمها ، ثم — اذا هي آخر الامر — مثل حي تُرَدّ على غراره المشاريع الاستعمارية الواحد تلو الآخر متساقطاً على نفسه من الحيرة والذهول . ولو قدّر لمعاهدة (بورتسموث) ان تمضي في طريقها بأمان لتتابعت — اذن — خلفها تلك المشاريع كلها في هذا الطريق بأمان كذلك .

أليس معنى هذا ان (الوعي) ارتقى الى حيث يجب الاعتراف به ؟ أكان ممكناً أن تؤثر حركتنا هذه التأثير السريع لو أنها عمل افرادي غير موصول بالقدر المشترك من الوثبة العربية ؟

أنا — على الأقل — أؤمن أن قوى الشعب لم تعد (أصفاراً) ، بل أصبح وراء أصفارها كثير من الأرقام التي تخولنا أن نقول للمستعمرين : قفوا مكانكم ! وأن نقول لصنائعهم : تنحوا عن الطريق !

وجدير بالنفايات من حماة المصالح الاستعمارية في شرقنا العربي أن يندحروا بعد اليوم الى النهاية ، فقد انتبه هذا الشرق العزيز من رقدته التي انسلوا تحت ستارها ليكونوا عوامل فساد وأسواط إرهاب بأيدي الأجانب يلهبون بهم ظهورنا بقسوة في جانب من

خطتهم ، ويبخرون باستهتارهم أخلاقنا في الجانب الآخر .

غير ان الأمر – كما يبدو لي – كُبرَ عن ذلك بعد أن (شب عمرو عن الطوق) واستوى على قدميـــه ، فراقَهُ قدّه واعتداله ، وأعجبه اعتباله وجماله ، وساعدته على استجلاء (ذاته) في حقيقتها من الفتوة المرآةُ الكونية من هـــذا التطور السريع الذي قلب المفاهيم بعد الحرب رأساً على عقب .

فنحن – اذن – واعون .

وهذا الوعي الذي نتحدث عنـــه هو الوسيلة المرجوة دون غيرهـــا من وسائل القوة على اقتحام مطلبنا الشاق . وغني عن البيان ان من ضرورات النفـاذ والتأثير في هذا الوعي شموله هـذا الذي بدأت تباشيره تستعلن على نحو ما أوضحناه قبل قليل من السطور .

ونحن حين نعود الى هذه الازمات المستحكمة في أقطارنا الآن نجد الاول والاخير فيهـــا إنما هو التنازع الشديد بين معسكري الروس والانجلو أمريكان الطامح كل منهما الى السيطرة على موارد الشرق واستغلال ثرواته من ناحيـــة ، والى السيطرة عليه كقوة عالميـــة من شأنها ان ترجح بالكفة التي تكون في جانبهـــا من ناحية أخرى .

هذا ما حدا بالانكليز في أعقاب الحرب المنصرمة الى العنـاية بحيازة الشرق الى صفها بحرص شديد أشغل وزارة خارجيتها سنين طوالا بوضع التصاميم المختلفة لضمان استيلائها عليه ، غير انها فوجئت بحذر ويقظة بالغين أفسدا عليها خططها جميعاً .

ولن أنسب الى نشاط الروس شيئاً من إفساد هـذه الخطط ، لان في هذه النسبة غفلة غير مشرّفة ليقظتنا التي استقلت وحدها بافساد هذه الخطط بدليل اننا صارحنا الانكليز اكثر من مرة باننا وفينا لها مرات عديدة في محنها فقابلت وفاءنا بالاستهتار واللامبالاة، وانها تجني الآن شر ذلك الخلق الذي طبعت عليه سياستها الخادعة.

ومما نشير اليه من خططهـــا التي اصطنعتها لضمان الشرق انها بدأت قبل سنين لعلها اربع باثارة النزعات الطائفية في الشرق ، وحاولت من أجل ذلك ان تربط بين مسلمي الهند وجامع الازهر ومكة باتفاقيات باسم الاسلام ، ثم تملي لهذه الرابطة وخصومها الذين حاولت ان تثيرهم باسم الدين ايضاً لتتم لها من وراء ذلك السيطرةُ التي تعودت ان تبنيها على دماء الاخوان والمواطنين براحة ويسر . ولكن الذي تم لها في الهند لم يتم لها في البلاد العربية .

ثم عادت بعد هذا التصميم الى تصميم آخر لم يكتب له النجاح وفق ارادتها من قبل، وهو اخضاع الجامعة العربية من جديد وربطها بدول ميثـاق سعد أباد الذي وجهته ان يكون حصنها من الروس وجندها في الحرب العالميـة المقبلة . غير ان هذا التصميم كان ناقصاً ولن يتممه غير معاهـداتها المنفردة مع البلاد العربية ، بالاضافة الى اتفاقات تربط دول الشرق في ظل معاهداتها .

وهكذا بدأت في تنفيذ هذا التصميم اللئيم . غير أن مصر المجاهدة نجمت في هذا التصميم وجاولتها فيه بمحاولة حرة تليق بنهضة الشرق الحديثة ، وتنبه الشعوب الى ما يجدر بهذه النهضة من التدليل على وجود الوعي للصارم .

ومن الغريب انها تركت مصر محاصَرةً واقبلت على العراق بمعاهدة بورتسموث لتشق بها الطريق في حركة التفافية غبية إلى مصر والى غيرها من اقطارنا ، على اعتبار انها النموذج الذي تضع على قاعدته سلسلة المعاهدات المطلوبة .

على هذا النحو تسلسلت الفكرة في ذهنية الانكليز ... أما ختامها فهو ما تعلمون ، هو الوثبة التي غيرت معنى الحياة حتى في نظر الانكليز السادرين ، وافهمتهم ان اعتماد القبضة القليلة ممن انشأوهم كان خطأ في الحساب الاستعماري الملغى المنسوخ بحكم التطورات الصاعدة .

ومن يقرأ خطاب بيفن بعد الوثبة ويتتبع تعليقات الصحف البريطانية يخيل اليه ان القوم ، الى قناعتهم بخطأهم ، نادمون على ما فرطوا ، ويظهر له ان سياستهم تتجه في طريق جديد . وإذا اعطينا تأخر السفير البريطاني الجديد بطريقه الى العراق في مصر حقه من الملاحظة استطعنا ان نلقي بعض الضوء على احتمال تبدل الاتجاه في سياسة الأنكليز بعد رفض معاهدة « بورتسموث » ، ذلك لانه - كما قيل - تأخر ليستوحي الخطة الجديدة بعد إعلان رفض المعاهدة الذي يجب ان يقنع الانكليز بخطأهم ، ولا سيما بعد فشل مشاريعهم منذ سنين أربع على الاقل .

ولكني أنا ما زلت اشك بان هناك تغيراً اساسياً في هذه السياسة . ودليلي على ذلك ان الانكليز ما زالوا حتى الآن مهتمين بتكتيل دول الشرق . ولا مانع من هذا التكتيل لو جاء طبيعياً مباشراً بين هذه الدول دون تدخل الانكليز لان اهتمامهم به بعد الفشل المطرد

بصورة خاصة امر لا نتقبله بارتياح ، لانه يدلنا على خبء عودنا كل شر فيما مضى من عهودنا المظلمة .

ومما يرتبط بهـذا الموضوع ما تتناقله البرقيات ، ويتحدث به المراسلون من مسألة عقد معاهدة مع الجامعة العربية رأساً ، حتى لقد أشغلت هذه الرواية الاندية السياسية .

وإذا صحت فلن يكون لها اثر غير تفرق « العشاق » عن هذه « الجامعة» التي ما زالت موضعاً للشبهات .ولن يكون للمعاهدة التي تعقد معها من القيمة اكثر من قيمة التعاقد مع أفراد لا وزن لهم الآن في مقاييس التأثير .. وبعبارة اصرح لن يكون لهذه المعاهدة قيمة أكبر من معاهدة تربط مع « فخامـــة السعيد ومعالي عزام » ومن يحكمها « من الحكام للعرب ».

ومن الغريب أن إحدى الصحف المحلية روت عن فخامـــة الباجه جي يومئذ الميل إلى صحة عقد مثل هذه المعاهدة ،ومن شأنها ان تلغي صفة كل بلد الخاصة وإسقاط رأيه في السياسة الخارجية . ولا ندري مبلغ هذه الرواية من الصحة ،ولكنها ان صحت فاننا نعارض هذا الرأي وندعو فخامة الباجه جي [1] الى تبديل رأيه في هـــذا الموضوع إلا ان يكون رأيه هذا رأياً شخصياً يتركه في السيارة كلما دخل إلى مكتبه في وزارة الخارجية .

على اننا نعلم ان هـذا الرأي لا يمثل وزارة « الصدر » لانه لا يلائم روح الحكومة التي رفضت معاهدة « بورتسموث » .

---

(١) ناقشنا المرحوم الباجه جي بهذا قبل وفاته وكان كلامنا موجهـاً اليه باعتباره وزيراً للخارجية . وعليه فكل وزير بعده يناله هذا الحكم .

بقي علينا ان نعرض بعد هذا الاستقصاء لاهم ما يترتب على هذه النواحي من موقفنا الراهن ، وهو طبيعة العلاقة التي تربطنا الان بالانكليز على ضوء كل ما مر .

وطالما تشوف الناس بعد رفض معاهدة (بورتسموث) الى الخطوة التي تليها ، وطالما ضجت الاندية بالبحث عن صفة معاهدة سنة ١٩٣٠ الفعلية . اما الخطوة التالية لرفض المعاهدة المدحورة فنؤجل الكلام عليها إلى الخاتمة .

وأما صفة معاهدة الثلاثين فقد سبق ان أعلنا فيها الرأي غير مرة ،وقلنا إن بطلانها كان من اكبر الدواعي لعقد معاهدة جديدة تستمد صحتها من تعاقد جديد بعد التطور العالمي الذي ابطل تلك .

ولا يشك فقهاء القانون ان البدء بمفاوضة جديدة اعتراف من المتفاوضين جميعاً بانتهاء موضوعها ومرور زمانها،هـــذا مضافاً الى ظروف الاكراه التي اكتنفت عقدها يومذاك . ويضاف الى هذا كله ميثاق هيئة الامم المتحدة الذي نسخها ونسخ امثالهـا في كل البلدان الممتحنة بامثالها .

ومما يؤيد هذه الحقيقة الناصعة ان الانكليز الان حريصون على استجداء اعتراف منا بنفاذها بعد رفض معاهدتهم الجديدة .

وعلى هذا الاعتبار فنحن الان في حِلٍّ فقهاً – من أية معاهدة مع الانكليز . وهنا موضع الكلام عن (الخطوة التالية) ، وهي العقدة المتأزمة التي ينبغي أن نوجه إلى حلها أكثر ما نستطيع من مرونة وكياسة في حذر ويقظة . أما الحكومة وهي المسؤولة عن تعيين هذه الخطوة فلم تبرم حتى الان أمراً فيها ، بالرغم مما قيل ويقال

عما في حقيبة السفير الجديد . ولعل الحكومة غير مطمئنة إلى الآن إلى ما سيحدث، وإن كانت معتصمة برأيها الشعبي، ماضية بصلابة فيما ترتأيه من مصلحة البلاد بالرغم مما تستقبله من مشاق ، ومما يعترضها من صخور في ميدانها الواقعي الذي ينكشف لها عما لا ينكشف لنا.

واما نحن فاننا لنصرّ على أن تكون علاقاتنا بالانكليز متأثرة بالتطور الحديث، ملائمة لمواثيق السلم ومنظماته العالمية ، دون اللجوء إلى الخداع والمماطلة والتلون، لنفرغ من ذلك إلى إنشاء هذا الوطن جديداً يتلاقى في ممارسته حقوقه العدلان السياسي والاجتماعي .

نقول هذا مقدرين موقف الحكومة الشاق في هذه المرحلة التي تعتبر أدقّ مرحلة يجتازها العراق .

ونحن في نفس الوقت ندعو الكتّاب إلى فسح المجال أمام الحكومة تتمتع بصلاحياتها في الواجب الذي القيناه على عاتقها . فان لم تنهض بالمهمة كان لنا فيها رأي ، وكان لنا معها موقف ان أحوجتنا اليه .